مقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه . وبعد :

كان يخيل الى مصطفى صادق الرافعى دائما أنه رسول لغوى بعث للدفاع عن القرآن ، ولغته ، وبيانه . وكان يؤمن أشد الايمان بتمدن العرب اللغوى ، ويزهو بمستواه فى ثقة واعتزاز • وقد وجدت أن ماكتبه فى تاريخ آداب العرب تحت عنوان « أسرار النظام اللغوى » لم يكن الا معبرا عن جهد كبير فى سبيل اثبات وتأكيد ما يؤمن به ، وابرازنسقه بنهج يسيطر على وجوهه.ويكشف ما يرمى اليه من سمو وجلال • واكن هذا الجهد لم ينل من الباحثين ما يستحقه من البحث الجاد ، والدارسة الشاملة ، ولم يتعرض الذين كتبوا عن حياة الرافعى وتفكيره لبحثه فى أسرار النظام اللغوى على الرغم من تميزه وأهميته ، ولم يكشف أحد النظرية التى تمكنت من الهيمنة على تلك الاسرار ، ووجهتها الوجهة التى تريدها ، أو يتناول مابذله الرافعى فى تجلية ضروب نظامه ، وسيادة نظريته بالدراسة التى كنا نرجوها •

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الرافعى كان عالما فى العربية ، أمكنته اللغة من قيادها . وألقت اليه بأسرارها . وأن كتابه تاريخ آداب العرب من الكتب التى يعتمد عليها الدارسون . وأنه من الواجب أن تعطى أسرار النظام اللغوى كل مايستطاع حتى نعرف قدر الرجل ، وندرك أثره ، ونتصل بالحقائق اللغوية على هدى ورشـــاد • وحين قمت بدراسة أسرار النظام اللغوى عند الرافعى استخلصـــت الكثير مما ينبغى أن يعرفه الناس . وتبين لى ارتباط الاسرار بنظرية المناسبة، وقيام ضروب النظام اللغوى عليها بطريقة جعلت درسه مترابطا متميزا •

وأدركت أنه يجب أن يحيط الطلاب بهذه النظرية ، ويدرسوا آراء البحث اللغوى فيما ذكره الرافعى ، فذلك يتيح لهم أن يعلموا ما قدم من جهود فى مشكلة المعنى ، وأن يخرجوا بحصيلة مثمـرة من ثمار الدرس اللغوى •

« وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » •

د : حامد محمد أمين شعبان
كلية التربية ــ جامعة القاهرة
فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٧٩ م

مصطفى صادق الرافعى

ولد مصطفى صادق الرافعى بن الشيخ عبد الرازق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعى فى يناير عام ١٨٨٠ م فى بهتيم من قرى محافظة القليوبية فى منزل جده الشيخ الطوخى الذى كان يتاجر بين مصر والشام ، اذ آثرت أمه أن تكون ولادتها فى دار أبيها (١) ، وهذه الام سورية الاصل كأبيه الشـــيخ عبد الرازق الرافعى الذى عمل بالقضاء الشرعى، وأخذ يتنقل من بلد الى بلد رئيسا للمحاكم الشرعية، حتى انتهى به المقام فى مدينة طنطا ، وفيها قضى بقية عمره ، وفيهـــا أيضا عاش مصطفى صادق الرافعى كل حياته الفكـــرية والادبية ، متخذا طنطا وطنا ومقاما لايعرف له وطنا غيرها (٢) .

وقد تلقى دروسه أول ما تلقى على يد والده ، وكانت حافلة بتعاليم الدين ، وحفظ شيء من القرآن الكريم ، ودراسة بعض أخبار السلف ، كما كانت مليئة بحصيلة وفيرة من الثقافة الخارجية ، وثمار العمل فى مجال القضاء الشرعى .

وتأثر مصطفى صـــادق الرافعى بما تجلى فى والده من الورع والصلابة فى الدين ، والشدة فى الحق ، وأعجب بعزة نفسه ، وإباء روحه ، وعظمة طموحه (٣) ، وقوة جهاده . وأدرك أن الاسرة الرافعية التى ينتمى اليهـــا نالت حظـــا عظيما من الشهرة بفضل أبنائها من الاعلام المشهورين فى شتى مجالات الادب ، وعلوم الدين ، والقضاء والسياسة ، وعرف أن ذلك يرجع الى حب العلم والتنشـــئة عليه ، وتعشق الثقافة والتعويدعلى التعلق بها حتى سيطرت علىكثير من أمور القضاء الشرعى الامر الذى لفت نظر عميد الاستعمار البريطانى فى مصر اللورد كرومر وربما أدخل الفزع فى قلبه (٤) .

---

(١) محمد سعيد العريان : حياة الرافعى الطبعة الثانية ١٩٤٧ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ص ٢٧

(٢) نفسه ص ٢٥

(٣) نفسه ص ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠

(٤) د : مصطفى الشكعة : مصطفى صادق الرافعى كاتبا عربيا ومفكرا اسلاميا جامعة بيروت العربية ١٩٧٠ م ص ١٧ ومحمد سعيد العريان حياة الرافعى ص ٢٤

أما المدرسة فقد دخلها بعدما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين وهو يتشبث بالطاعة ، واحترام الكبير ، وتقديس الدين ، والاقتداء بالسلف (١) • ولكنه لم ينل من الشهادات الا الشهادة الأبتدائية (٢) •

وكان لمكتبة أبيه أثر كبير فيما حصله ، فقد أقبل على ما فيها من تراث انسانى يجد فيه كل انسان مشعلا يضىء له سبيل البحث والكشف والتجرد والابداع ، واستطاع أن يستوعب نوادر كتب الفقه والدين والعربية ، ويحيط بكل ما فيها ، ويؤثرها على ماسواها (٣) •

وعندما عين كاتبا بمحكمة طلخا الشرعية فى ابريل سنة ١٨٩٩ م لم ينقطع عن المطالعة والدرس يوما واحدا • ولكن الفترة الخصبة المنتجة من حياته كانت فى مدينة طنطا ، وفيها انتقل من المحكمة الشرعية الى المحكمة الاهلية بعد سنين ، وظل فى محكمة طنطا الاهلية الى يومه الاخير (٤) •

ونستبين، من حياته أن أسعد أوقاته هى الاوقات التى يثرى فيها معلوماته اللغوية « بحفظ القرآن الكريم ، والاحاديث النبوية ، ومواقف الاعلام فى التاريخ الاسلامى ، وحفظ أكبر قدر من شعر القدامى والمحدثين ، وخطب العرب ومحاوراتهم ، ومنافراتهم فى الجاهلية ، ودررهم الخطابية فى الاسلام •

لقد كانت هذه الثقافة •• هى التى خلقت عند الرافعى نظرية المزج بين اللغة والدين ، فكل من يحاول الاعتداء على اللغة أو الغض من شأنها أو النيل من قدرها ، فانما هو يحارب الاسلام علنا أو استتارا ، وهى نظرية أثبتت الايام صحتها (٥) •• »

---

(١) محمد سعيد العريان : حياة الرافعى ص ٢٨
(٢) نفسه ص ٢٨ ، ٢٩
(٣) نفسه ص ٣٠ ، ٣١
(٤) نفسه ص ٣٤ ، ٣٥
(٥) د : مصطفى الشكعة : مصطفى صادق الرافعى كاتبا عربيا ومفكرا اسلاميا ص ٢٠

وكثير من مواقف الرافعى تدل على أنه كان خير حارس للغة ، وأقوى مدافع عن لسانها•فقد واجه الذين يناصبون العربية العداء بكل ما استطاع بعد أن تبين له أن هناك مؤامرة متعددة الاطراف متباينة الاساليب تنتهى الى هدف واحد هو اعلان الحرب على اللغة العربية ، والنيل من العقيدة ، والدعوة الى تحقير كل ما هـو شرقى • وبدأ التآمر على اللغة فى شكل دعوة الى العامية أو تشويه اللغة العـربية السليمة بالتخلص من الاعراب ، وبدا أن الاستعمار يؤازر ذلك ، ويود عزل سلطان القرآن الكريم عن قلوب الناس (١) •

وظهر بعض الكتاب يقول فى الحملة على اللغة العربية « لنا من العرب ألفاظهم ماننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية ، وهى لغة بدوية لاتكاد تكفل الاداء اذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التى نعيش بين ظهرانيها الآن (٢) » •

وكان الرافعى يرد على صور التحامل بقوة ، ويواجه التـآمر بحجج ساطعة ، ودفاع متين ،ويخوض المعارك القلمية الفكرية الضارية من أجل لغة القرآن والحضارة معلنا أن اللغة انما هى « مظهر من مظاهر التاريخ والتاريخ صفة الامة ، والامة تكاد تكون صفة لغتها لانها حاجتها الطبيعية التى لاتنفك عنها ، ولا قوام لها بغيرها ، فكيفما قلبت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الامة واتصال الامة بها وجدتها الصفة الثابتة التى لاتزول الا بزوال الجنسية ، وانسلاخ الامة من تاريخها واشتمالها على جلـدة أمة أخرى (٣) ولايتخلى الاديب عن ابراز اعتزازه وفخره بالقبلة التى يتجهاليها ، ولاينسى الرسالة التى يؤمن بها ، والغرض الذى يجاهد من أجله • يقول فى وحى القلم (٤)

---

(١) نفسه ص ٣٢ ، ٤١

(٢) نفسه ص ٣٦ . والكاتب المذكور هو الكاتب سلامة موسى انظر رد الدكتور مصطفى الشكعة عليه فى نفس المرجع .

(٣) مصطفى صادق الرافعى تحت راية القرآن الطبعة الاولى سنة ١٩٢٦ المطبقة الرحمانية ص ٤٨

(٤) مصطفى صادق الرافعى : وحى القلم تحقيق محمد سـعيد العريان الطبعة الثالثة ١٩٥١ مطبعة الاستقامة ج ٣ ص ٣٠٠ وحيـاة الرافعى ص ٢٢٩

« والقبلة التى أتجه اليها فى الادب• انما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها ، فلا أكتب الا مايبقيها حية ، ويزيد فى حياتها ، وسمو غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها فى الحياة ، ولذا لا أمس من الآداب كلهاالا نواحيها العليا • ثم يخيل الى دائما أننى رسول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه فأنا دائما فى موقف الجيش (تحت السلاح) له مايعانيه وما يحاوله ويفى به وما يتحفظ فيه ، وتاريخ نصره وهزيمته فى أعماله دون سواها » •

« والعقيدة واللغة عند الرافعى توأمان لايفترقان ، وهو يرى أن الاعتداء على واحدة منهما اعتداء على الاخرى • وهو فى ربطه بينهما حتى فى مجال السياسة يقول (١) : « والذى أراه أن نهضة الشرق العربى لاتعتبر قائمة على أساس وطيد الا اذا نهض بها الركنان الخالدان الدين الاسلامى واللغة العربية • وماعداهما فعسى ألا تكون له قيمة فى حكم الزمن ألذى لايقطع بحكمه على شىء الا بشاهدين من المبدأ والنهاية » • (٢)

والحق أن ما قاله الرافعى كان دفقة من دفقات الروح المتوهجة، وتوقدا من توقدات الذهن المبدع ، واشراقة من اشراقات النفس الصافية التواقة الى الكمال الاسمى والخير المطلق •

وكتابه تاريخ آداب العرب قدم الكثير لخدمة اللغة العربية ، ويذكر من تحدثوا عن حياته واستقصوا من أخباره الكثير أنه فى عام ١٩٠٩ م كتب الرافعى مقالا فى الجريدة ينعى فيه على الجامعة المصرية التى أنشئت عام١٩٠٧ بعض مناهجها فى تدريس الادب وتاريخه ، فكان أن أعلنت الجامعة عن تأليف كتاب فى تاريخ الادب ، وحددت مدة سبعة أشهر كما جعلت جائزة الكتاب الفائز مائة جنيه ، ثم قامت بمد الاجل الى سنتين ورفع الجائزة الى مائتى جنيه • وكتب الرافعى يسخر من

---

(١) مصطفى صادق الرافعى : وحى القلم الطبعة الثالثة ج ٣ ص ٢٠٠

(٢) د : مصطفى الشكعة : مصطفى صادق الرافعى ص ١٤٤ وانظر محمد سعيد العريان حياة الرافعى ص ١٤٨

الجامعة ، ومن المدة المحددة ، والجائزة المتواضعة ، وكان يطمع فى أن يؤلف الكتاب ، ويعهد اليه بتدريسه (١) .. وقد انقطـــع الرافعى لتأليف كتابه من منتصف سنة ١٩٠٩ ، الى آخر سنة ١٩١٠ ، وفى سنة ١٩١١ طبع الكتاب على نفقته قبل الاجل الذى حددته الجامعة ، ولذلك لم يتقدم اليها به قبل طبعه ترفعا عن قبول الحكم فيه لجماعة ليس منهم من هو أبصر منه بالمحكوم فيه (٢) .

والظروف التى أحاطت بهذا الكتاب تدل على أهميته ، ويذكر محمد سعيد العريان أن « مقالات الرافعى فى « الجريدة » ، وكتابه « تاريخ آداب العرب » من بعد ، هما الســـبب فى تدريس الآداب العربية وتاريخها فى الجامعة المصرية وهما السبب كذلك فى وضع ما وضع من الكتب فى هذا العلم » (٣) .

ويبدو أن ما فى الكتاب من صفاء وبهاء واحاطة حسنة بكثير من أمور اللغة وغيرها قد جلب الرأى المحمود والثناء المستطاب ، ورفع صاحبه مكانا عليا ودفع كثيرا من الباحثين والادباء الى الاشادة به وتقدير منزلته (٤) .

« وفى السنة التالية أصدر الرافعى الجزء الثانى من تاريخ آداب العرب وموضوعه اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، وهو الذى أصدره من بعد فى طبعته الثانية باسم اعجاز القرآن ، وباسمه الثانى يعرفه قراء العربية » (٥) .

أما الجزء الثالث فقد مات الرافعى وفى مكتبته أصوله ، وتم طبعه سنة ١٩٤٠ ومما يجدر ذكره أن الجزء الاول يحتوى على بابين أولهما

---

(١) محمد سعيد العريان : حياة الرافعى ص ٦٥ — ٦٦ و د : كمال نشأت مصطفى صادق الرافعى : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر مصر ١٩٦٨ ص ٦٧ و د : مصطفى الشكعة مصطفى صادق الرافعى ص ١٩ — ٢٠

(٢) محمد سعيد العريان حياة الرافعى ص ٦٧

(٣) نفسه ص ٦٧

(٤) نفسه ص ٦٨ — ٦٩ و د :مصطفى الشكعة : مصطفى صادق الرافعى ص ٥٤

(٥) محمد سعيد العريان : حياة الرافعى ص ٦٩ — ٧٠

كما ذكر الرافعى فى تاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك • وثانيهما فى تاريخ الرواية ومشاهير الرواة وما تقلب من ذلـك على الشعر واللغة •

وبحثنا يتناول ماكتبه الرافعى فى الجزء الاول من تاريخ آداب العرب تحت عنوان أسرار النظام اللغوى ، وهو فى رأينا دراسة هامة تعد خير الدراسات التى كتبها الاديب الكبير فى تاريخ آداب العرب ان لم تكن أفضلها على الاطلاق • وسنجلى أسباب ذلك فى دراســـتنا للاسرار ، وما تحمله من نظرية فرضت سيطرتها بصورة تعبر عن الترابط والشمول ، وتدل على نهج قوى فى الدرس اللغوى يشير الى السمو ، والحضارة ، والتعمق ••

لقد كتب الرافعى مؤلفاته وزاد بيانها الادبى والفكرى بأسلوب بليغ ، حى نابض بالحياة ، لم يستصعب عليه أعمق المعانى ،ولم يشمس على قلمه أدق حركات الفكر وأعمق خلجات النفس الانسانية •

ولسنا فى حاجة الى تفصيل الحديث عن آثاره الادبية فقد تولى ذلك من قبل الاستاذ محمد سعيد العريان (١) • وحسبنا ما قدمناه من اشارات لابد منها تعين على معرفة أسباب اهتمامه باللغة وأسرارها •

وفاته :

توفى فى ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ ، وكان فى السابعة والخمسين من عمره ، وقد دفن جوار أبوبه فى مقبرة الرافعى بطنطا وترك وراءه عشرة من أولاده (٢) ولم ينل ما يستحقه من الوفاء وواجب الذكرى •

---

(١) نفسه ص ٣٤٩ — ٣٥٣ ومن اهمها : ديوان الرافعى فى ثلاثة اجزاء وديوان النظرات ، وملكة الانشاء ، وتاريخ آداب العرب ، واعجاز القرآن ، وحديث القمر ، والمساكين ، ورسائل الاحزان ، والسحاب الاحمر ، والمعركة تحت راية القرآن ، وعلى السفود ، واوراق الورد ، ووحى القلم ، واسرار الاعجاز ، وديوان اغانى الشعب .

(٢) د : كمال نشأت مصطفى صادق الرافعى ص ٢٤